قضية فلسطين من مستوى الدعاية الى مستوى التضامن الاممي

بقلم جورج طرابيشي

غداة حرب الخامس من حزيران مباشرة قال المفكر الماركسي الثوري ، اليهودي الاصل ، اسحق دويتشر في حديث له لـ « مجلة اليسار الجديد » البريطانية :

« انني مقتنع بأن انتصار اسرائيل العسكري سيتكشف في مستقبل قريب عن انه كان في الواقع كارثة ، وبالنسبة الى دولة اسرائيل بالذات في المقام الاول ... لقد استخلص الالمان الدرس من تجربتهم الخاصة ، في صيغة مليئة بالمرارة : « ان النصر يمكن ان يحفر قبرك بالذات » . وهذا ما حدث للاسرائيليين ... اجل ، انه بالنسبة الى اسرائيل نصر اسوأ من الهزيمة . نصر اضعف امن اسرائيل بدلا من ان يعززه » (١) .

ان كلمة دويتشر هذه كانت بمثابة نبوءة ، لا لانها اخر كلمة صدرت عن صاحبها قبل وفاته فحسب ، بل ايضا لان الحركة الفدائية العربية التي كانت السبب الرئيسي في الحرب التي شنتها اسرائيل على الدول العربية الثلاث لم تمت ولم تضمحل ولم تستأصل من « قواعدها » بنتيجة انتصار اسرائيل العسكري ، بل على العكس نمت وتطورت واوشكت ان تتحول الى حرب تحرير وطني شاملة . والدليل ليس بيانات الفدائيين وحدها ، ولا بلاغات العسكريين الاسرائيليين عن تزايد اعمال « الارهاب والتخريب » ، وانما الدليل ايضا موقف الرأي العام العالمي .

لنفتح دونما تعيين اي صحيفة او مجلة اجنبية نجد ان القضية الفلسطينية ، وفي المقام الاول انباء المقاومة العربية ، تحتل في غالب الاحيان مكان الصدارة . ان امامي الان الصحف الفرنسية الصادرة في الاسبوع الاخير من العام الماضي . « النوفيل اوبسرفاتور » الاسبوعية تكرس مقالها الافتتاحي للتطورات السياسية للقضية الفلسطينية ، و « الاكسبرس » الاسبوعية تكرس اربع صفحات لـ « يقظة الفلسطينيين » ، و « اللوموند » اليومية تخصص للقضية نفسها نصف صفحة يوميا .

ما الذي حدث اذن ؟ ان العرب الذين طالما اشتكوا من ان الرأي العام العالمي يهمل القضية الفلسطينية ولا يوليها الاهتمام العادل والكافي يجدون اليوم انفسهم امام دوامة هائلة وسيل جارف من المقالات والتعليقات والكتب التي تعبر عن ان الاهتمام الاجنبي والاممي بالقضية الفلسطينية قد ولد . لماذا ؟ هل لان تفاصيل حرب حزيران ما تزال مثيرة للاهتمام ؟ هذا سبب . وهل لان انتصار اسرائيل العسكري لم يحل المشكلة ؟ هذا سبب اخر . ولكن السبب الرئيسي ، الجوهري ، يكمن في ان العرب وجدوا اخيرا ولاول مرة منذ وقوع المأساة (١٩٤٨) الطريق الصحيح لطرح القضية الفلسطينية على الرأي العام العالمي . ونحن لا نقصد بـ « الطريق الصحيح » اسلوب اجهزة الاعلام العربية في مخاطبة الرأي العام العالمي . وكم يبدو لنا بالاساس خاطئا الرأي الذي يقول ان جهل الرأي العام العالمي بالقضية الفلسطينية يعود قبل كل شيء الى عجز اجهزة الاعلام العربية والى سقم اساليبها . ذلك ان الاعلام هو بالتعريف وفي جوهره اعلام عن شيء . وهذا « الشيء » الذي كان يفترض في اجهزة الاعلام العربية ان تعلم عنه لم يكن موجودا. صحيح ان اجهزة الاعلام العربية كانت تستطيع ان تتحدث عن اسباب الكارثة وجذورها ونتائجها ، وعن الصهيونية واخطارها ، وعن اللاجئين وبؤسهم ، ولكن هذا كله كان ، بمعنى ما ، ابن الماضي . والحال انه ليستحيل ، على مستوى قضايا الشعوب ، ادانة الحاضر باسم الماضي . لقد كان السلاح الاعلامي الصهيوني ، على سبيل المثال ، ضعيفا طالما كان الصهاينة يتحدثون عن الحق التاريخي لليهود في ارض فلسطين ، اذ لم يكن من المعقول ان يتقبل الرأي العام العالمي تشريد شعب راهن او ابادته باسم الحق التاريخي لشعب اخر . ولقد انتبه الصهاينة الاوائل لهذه الحقيقة ولهذا بنوا اعلامهم ودعايتهم على فكرة هرزل القائلة : « ارض بلا شعب لشعب بلا ارض » . وكان المقصود من هذه الفكرة كما هو واضح ايهام الرأي العام العالمي بأن فلسطين ارض جرداء لا شعب فيها يمكن لشعب (اليهود) بلا ارض ان يستوطن فيها (١) . والمبكي ـ المضحك بعد فاجعة ١٩٤٨ ان اجهزة الاعلام العربية ورثت ، بمعنى ما ، نقطة الضعف في الاعلام الصهيوني . فقد بات عليها ان تقنع الرأي العام العالمي بوجوب طرد « شعب » راهن من فلسطين باسم « الحق التاريخي » لشعب اخر . وصحيح ان هذا « الشعب الاخر » كان موجودا ، متمثلا في لاجئي المخيمات ، ولكن هؤلاء اللاجئين ما كانوا يمثلون اكثر من « حق تاريخي » ما داموا وما دام الاعلام العربي يصورهم على انهم مجرد كمية بشرية سالبة محرومة لا من حق الثورة وحدها ، بل ايضا من « حق » الانين والشكوى (٢) .

تلكم هي نقطة العجز الخطيرة في موقف الاعلام العربي سابقا : اقناع الرأي العالمي بحق شعب في ارضه ، علما بأن هذا الحق ما كان قادرا على الارتفاع الى اكثر من مرتبة « الحق التاريخي » في نظر شعوب العالم ما دام شعب فلسطين المشرد مجرد كمية بشرية سالبة في احصائيات هيئة الامم ووكالة الغوث .

ومما سهل هذا الانحطاط الى مرتبة الحق التاريخي اختيار الفلسطينيين واضطرارهم في آن واحد للنزوح عن اراضيهم . ولقد كانت الفاجعة قابلة لان تتكرر من جديد بعد حرب حزيران لو ان النزوح من الضفة الغربية بوجه خاص استمر على نفس الوتيرة التي كان عليها في الايام الاولى من الحرب (٣) . ولكن بقاء غالبية عرب الضفة

---

(١) ـ لهذا كان من ضمن الجهود المشكورة التي بذلها بعض المؤرخين الاجانب «محاولة» اثبات وجود شعب في فلسطين قبل غزوها.

(٢) ـ ان الادب العربي المعاصر مسؤول الى حد كبير عن هذه الصورة لشعب فلسطين .

(٣) ـ يلاحظ الدكتور صادق جلال العظم في كتابه « النقد الذاتي بعد الهزيمة » ان العفوية العشائرية والعائلية لعبت دورا مؤسفا في هجرة النازحين الجدد . فلقد صرح العديد من النازحين انهم نزحوا حفاظا على « اعراض » بناتهم ولان اقاربهم نزحوا . وهذا معناه ان الارتباط بالاهل والعشيرة ما يزال لدى البعض اقوى من الارتباط بالارض والوطن ، وان مفهوم « الشرف الجنسي » اقوى من مفهوم « الشرف الوطني » .

(١) ـ « حول الحرب الاسرائيلية ـ العربية » ـ الازمنة الحديثة ـ تشرين الثاني ١٩٦٧ ـ ص ٧٩٧ ـ ٨١٩ .

الغربية في اراضيهم هو الذي جعل كتاب العالم وصحفييه يتساءلون لاول مرة منذ عشرين عاما : ماذا نفعل بالفلسطينيين ؟

والحقيقة ان التغير الجوهري الذي طرأ على الوضع الاعلامي للقضية الفلسطينية بعد حرب الخامس من حزيران يكمن في ان العالم وجد نفسه امام شعب حي لا امام حق او شعب تاريخي : ان الفلسطينيين لم يمتنعوا عن النزوح من الاراضي المحتلة فحسب ، بل قرروا ايضا ان يقاوموا .

لقد صدرت في الغرب عشرات الكتب ونشرت مئات المقالات بعد الخامس من حزيران وكلها تتحدث (بشماتة في غالب الاحيان) عن كيفية تغلب مليوني اسرائيلي على مئة مليون عربي . وكان معنى ذلك واضحا : ان الاسرائيليين شعب مصمم على الحياة وجدير بها بالتالي. ولو قيض لهذا المنطق ان يستمر ، لكان هذا معناه انحطاط الحق العربي في الاراضي المحتلة حديثا الى حق تاريخي هو الاخر . ولكن كل شيء تغير فجأة عندما سمع العالم لاول مرة بأن هناك منظمات فدائية تقاوم .

لنعد الى الصحف الفرنسية الصادرة في الاسبوع الاخير من عام ١٩٦٨ ولنتوقف قليلا عند مقال جان فرانسوا كاهن في مجلة « الاكسبريس » . ان اول ما يلفت النظر فيه عنوانه : « يقظة الفلسطينيين » ، والصور المنشورة معه : مجموعة من الفدائيين وهم يتلقون دروسا في التدريب ، فدائي يخترق سورا من نار ، مشهد من مشاهد التدمير بقنابل الفدائيين في قلب القدس ، ومشهد اخر من مشاهد التدمير في الاردن بفعل القصف الجوي الاسرائيلي . ثم يقظة الفلسطينيين وخروجهم من اطار التاريخ والسلبية ... لقد ارادها العدو حرب ايام ستة ، ولكن المقاومين العرب انهوا اسطورة الايام الستة :

« ان حرب الايام الستة لا وجود لها . فالحرب التي بدأت في ٥ حزيران ١٩٦٧ ما زالت مستمرة الى اليوم منذ عام ونصف عام » .

والمخيمات ايضا تغير وجهها . انها لم تعد مخيمات للاجئين . لم تعد تجمعا لكتل بشرية سائمة سالبة . انها اليوم بؤر ثورية ، مخيمات اطفال ونساء وشيوخ لا مخيمات رجال :

« لكن اين اذن الرجال ؟ واجابني بصوت خافت الشيخ الذي طرحت عليه هذا السؤال : « اذا كان وطنك محتلا ، فهل تنتظر بهدوء في معسكر للاجئين ؟ » . والحق ان المخيمات التي كانت بالامس مستنقعات لليأس قد اضحت اليوم حصونا للثار . لا متسولين ، ولا وجوه موتى ... انه هو السبب الاساسي للصدمة التي حولت قطيعا من المستأصلة جذورهم الى شعب نشوان ثمل بالامل ، انه «الفدائي» ذاك الذي يقدم حياته فداء . وقد سألت ثلاثة غلمان في العاشرة او الثالثة عشرة من العمر : « ماذا تريدون ان تفعلوا في المستقبل ؟ » فأجابني الثلاثة : « فدائيين ! » . ان الحرب قد بدأت لا اكثر بالنسبة الى كل هؤلاء الذين قطعوا عن جذورهم ... لقد كف الفلسطينيون عن ان يكونوا مجرد ذريعة او دليل . لقد استيقظوا . ولن يعاودوا النوم بسهولة ... لقد كان الجميع ، الدول الكبرى واسرائيل وبعض الحكومات العربية ، يعللون انفسهم بوهم واحد : النسيان ، فالفلسطينيون المهاجرون سيشيخون وسيكف اولادهم عن ترديد احقادهم وضغائنهم اللامعقولة . وهنا كانت « المفاجأة » . ان الابناء لم ينسوا ... ولسان حالهم يقول اليوم : « ان فلسطين بلادنا ومستقبلها يخصنا نحن . لقد اخطأنا اذ تركنا هذا الارث وديعة لدى الحكام العرب ، ولقد رأينا النتيجة . لقد قرر شعبنا اليوم ان يأخذ مصيره بين يديه . ولن يقبل بعد اليوم ان يقرر غيره بالنيابة عنه لا بصدد السلم ولا بصدد الحرب » (١) .

ولناخذ ايضا افتتاحية جان دانييل في « النوفيل اوبسرفاتور » ـ وجان دانييل صهيوني متخف في اهاب التقدمية ـ ولنر الى غضبته وهو يلاحظ ان مجلة « التايم » الاميركية خصصت غلافها وست صفحات للمقاومة الفلسطينية ، و « هذه اول مرة تدافع فيها صحيفة اميركية كبيرة بهذا الاسلوب عن القضية العربية دون ان تبالي بردود فعل الجالية اليهودية الاميركية الكبيرة » . وواضح ان جان دانييل يريد ان « يدس » ، ولكنه لم يستطع ان ينفي ان الاهمية التي اخذتها المقاومة العربية هي التي فرضت على « التايم » كمجلة اخبارية ان تخصص من صفحاتها ما خصصته للمقاومة العربية . والحقيقة ان الشعب عندما يقرر ان يستيقظ ، ان يوجد ، لا يعود في وسع احد ان يتجاهله . وشعب فلسطين قرر ان يستيقظ وان يصبح شعبا تاريخيا فاعلا بمعنى انه لن يكون بعد اليوم موضوعا للتاريخ وانما ذات التاريخ . والعبارة التي يقتبسها جان دانييل عن فرانز فانون في « معذبي الارض » والتي يعترف بانها اصبحت الغذاء الفكري الاول للمقاومين الفلسطينيين ، تؤكد بما لا يدع مجالا للريب بأن شعب فلسطين قد بعث : « ان العنف قوة مطهرة . انها تحرر الانسان المضطهد من عقدة نقصه ، وتخلصه من يأسه ، وتنتشله من خموله . انها تعلمه الشجاعة وتعيد اليه الكرامة » (٢) .

هذا البعث بواسطة العنف ، بواسطة المقاومة المسلحة وحرب الانصار ، هو ما تؤكده الصحفية الفرنسية التقدمية ، اليهودية الاصل، آنيا فرانكوس في ريبورتاجها الطويل عن الفلسطينيين (٣) . فهي في كل فصل من فصول كتابها ، بل في كل فقرة من فقراته تؤكد ان ساكني الخيام ما عادوا كما مهملا قد يبعث على الاسى والعطف ولكنه عاجز عن ان يغير شيئا في واقعه ومصيره . لقد زارت مخيمات اللاجئين في الاردن قبل الحرب ، وكانت الصورة التي رأتها في كل مكان واحدة : « البرد شديد . انها ستثلج على الارجح . في كل شتاء يموت الكثير من الاطفال والشيوخ في المخيمات : فالسقوف التوتيائية تحملها الريح ، والمطر يدلف الى الخيام ، ولا شيء يتدفأ به ... ويقول لي شيخ طاعن في السن وهو يبكي : « لقد تخلى عنا الجميع ، واسرائيل تذبحنا ذبح النعاج بعد ان قضت علينا بالموت البطيء » .

تخلى عنا الجميع ... الموت البطيء ... ولكن لهذا على وجه التحديد ولدت « العاصفة » ، وقامت باول عمل لها في الاول من كانون الثاني ١٩٦٥ عندما فجرت الغاما في سد الباطوف . وازهر لاول مرة في المخيمات الامل وقال سكانها كما تروي آنيا فرانكوس « اخيرا ، انتهت الخطب ! جاء دور العمل ! » .

لقد سألت الصحفية الفرنسية الشابة احد اعضاء « جبهة التحرير الوطني الفلسطيني » قبل الحرب : « ما الفائدة التي تجنونها من وراء نسف قطار بين القدس وتل ابيب ؟ » فاجابها وعلى شفتيه ابتسامة عريضة ساخرة : « ما الفائدة التي نجنيها ؟ ان هذا العمل يلقي البلسم في قلوبنا نحن الفلسطينيين ، ويرفع من معنوياتنا. هل تعرفين ما معنى مجتمع مهدم ، شعب مشتت مذرر منذ عشرين عاما ، شعب يثير « الشفقة » ، شعب من اللاجئين ، شعب يعيش من التسول ، شعب اختفى حتى اسمه من الخريطة ؟ لقد كان الجزائريون مستعمرين ، ولكنهم كانوا في بلادهم ، وكان اسم الجزائر على الخريطة. وبدلا من « فلسطين » وضع اسم « اسرائيل » . اننا نحن الفلسطينيون لم نرفع قط اذرعنا ... ونحن نريد الان ان نضرم نار حرب انصار حقيقية ... وسنعمل على تحويل المنطقة كلها الى منطقة عواصف ما دام وطننا غير محرر » .

والحق ان تصاعد المقاومة العربية المسلحة في الاراضي المحتلة هو في سبيله الى تغيير الخريطة الاستراتيجية لمنطقة الشرق

(١) ـ « الاكسبريس » ـ العدد ٩١١ ، ٢٣ ـ ٢٩ كانون الاول ـ ص ١١ ـ ١٤ .

(٢) ـ « الفلسطينيون » ـ جلبار ـ ٣١٨ صفحة .

(٣) ـ « لو نوفيل اوبسرفاتور » ـ العدد ٢١٤ ، ٢٤ كانون الاول ١٩٦٨ .

الاوسط . ويمكن تلخيص هذا التغير في جملة واحدة ، هي تلك التي تنقلها آنيا فرانكوس على لسان احد الفدائيين : « ان الفلسطينيين ما عادوا مشكلة ، فهم الان شعب يقاتل . ان كلمة اللاجيء قد الغيت عندنا » .

وانطلاقا من هذا التغير في الخريطة الاستراتيجية لمنطقة الشرق الاوسط يمكن ان نفهم الابعاد الجديدة التي اخذتها القضية الفلسطينية على الصعيد الاعلامي العالمي . فلقد كانت القضية الفلسطينية طوال عشرين عاما ، وبحكم غياب شعب فلسطين العربي عن مسرح الاحداث ، مجرد قضية « اعلامية » ، مجرد موضوع للاعلام والدعاية لا يكاد يتميز لولا طابعه المأساوي عن اي موضوع آخر من مواضيع الاعلام والدعاية ، كالسياحة مثلا . ولطالما اشتكى العرب في الماضي من ان الغرب (والشرق ايضا) لا يفهم القضية الفلسطينية على وجهها الصحيح والعادل . وكانت الحلول المقترحة دوما زيادة عدد مكاتب الاعلام في الخارج وطبع الكتب والنشرات باللغات الاجنبية . وبذلك يكون الاعلام العربي قد ساهم هو نفسه في الماضي في تصوير القضية الفلسطينية على انها مجرد قضية « تاريخية » يمكن فيها بمجرد الاعتماد على الوثائق وحدها تغيير قناعات هذا او ذاك من مواطني العالم او حكامه . وبالنظر الى سيطرة العناصر الصهيونية على اجهزة الاعلام والنشر في كثير من الدول ، فقد كانت تلك الوثائق تظل عديمة التأثير والفاعلية ، وتقابل باضعاف اضعافها من الوثائق الصهيونية الى درجة ان العرب باتوا يعتبرون ان مجرد نشر وثائقهم هو نصر للقضية الفلسطينية بغض النظر عن تجميد مفعولها .

وبالطبع لا يمكن لاحد ان ينكر ان للوثائق التاريخية دورها واهميتها ، ولكن الشيء الجديد الذي اعلن عن نفسه بعد حرب حزيران وبعد تصاعد المقاومة العربية المسلحة هو ان القضية الفلسطينية بدأت تأخذ ابعادها « الاعلامية » العالمية العادلة بدون وثائق ولا مكاتب اعلام . ذلك أن تجسد المقاومة المسلحة في الاراضي المحتلة قد ناب (ولا اقول اغنى) عن كل نشاط اعلامي وثائقي . ذلك ان حركة المقاومة العربية تمتاز على كل وثيقة تاريخية بأنها حية . والحي يسمي نفسه بمجرد انه حي . ومهما تكن نظرة اجهزة الاعلام الاجنبية الى المقاومة العربية فانها لن تستطيع بعد اليوم ان تتجاهلها على الاقل . أن المقاومة العربية المسلحة تستكمل ابعاد حياتها ونموها وتصاعدها من خلال كل خبر ينشر عنها او يذاع مهما يكن صغيرا بل متحيزا بل معاديا . انها في سبيلها الى ان تصبح قضية يومية في الاعلام العالمي . وليس من حي كاليومي .

والحقيقة ان بعث القضية الفلسطينية بفضل تصاعد المقاومة المسلحة في الاراضي المحتلة قد شرع باحداث تغير جذري (انقلاب) في التصور الاعلامي عن هذه القضية . ذلك ان تصاعد المقاومة المسلحة يضع بالضرورة حدا لكل الاساليب والانماط السابقة في الاعلام . فلم يعد المطلوب اليوم كسب عطف او تبديل قناعة هذا او ذاك من مواطني العالم . وبالرغم من ان كسب العطف او تبديل القناعة يظل دوما هدفا رئيسيا لكل اعلام ، فان من واجب الاعلام العربي ان يدرك ويأخذ بعين الاعتبار التبدل الحاسم الذي طرأ على منظور القضية الفلسطينية بعد بعثها بفضل المقاومة المسلحة . فهذه القضية لم تعد ، بكل بساطة ، بحاجة الى الدعاية التي من النمط التقليدي . بل لعل الاستمرار على هذا النمط التقليدي قابل لان يلحق اذى فادحا بالقضية .

ان حركة المقاومة العربية هي حركة ثورية ، وهي ككل حركة ثورية تطرح نفسها من منظور التضامن الاممي لا من منظور الدعاية العالمية . وبون شاسع بين مطلب التضامن وبين الدعاية . فالدعاية تتوجه اساسا الى عالم مستريح ، سكوني ، مرتاح الضمير ، وكل هدفها ان تحدث بعض التحول في تياراته من غير ان تخرجه عن سكونيته او تحرج ضميره المرتاح . انها لا تطرح عليه من مشكلة ولا تسبب له ازمة . وعبثا حاولت اجهزة الاعلام العربية ان تحدث في الرأي العام العالمي ازمة ضميرية عن طريق الصور المؤسية التي قدمتها له عن حياة اللاجئين في الخيام . ولعل اقصى ما استطاعته هو انها اقنعت بعض الحكومات بتقديم المساعدات عن طريق وكالة الغوث لتسكين آلام اللاجئين ومنعها من الانفجار . ذلك ان الانفجار هو الطريق الوحيدة لاحداث ازمة . والازمة هي اخشى ما يخشاه عالم مستقر ، مرتاح .

ان الدعاية التي من النمط التقليدي يمكن ان توحي من قريب او بعيد بأن القضية التي تدعو لها هي قضية قابلة للربح او الخسارة . والحال ان حركة المقاومة العربية كحركة ثورية وكقضية تحرر وطني لا تحتمل وضعها في كفتي ميزان يمكن ان تتعادل فيه الارباح والخسائر. وفي قضايا الشعوب والتحرر الوطني لا تحسم الامور عن طريق الدعاية . ونداء التضامن الصادر تلقائيا عن كل حركة تحرر وطني لا يمكن ان يكون مجرد وسيلة دعائية . ففي عصرنا هذا الذي هو بحق عصر التحرر الوطني والانتقال الى الاشتراكية ، تكتسب كل حركة قومية للتحرر الوطني ابعادا اممية مباشرة . وفي مثل هذا الوضع لا يعود ثمة من مجال للدعاية التي من النمط التقليدي والتي تقوم في غالب الاحيان على معايير مزدوجة . ولقد كانت الدعاية العربية بصدد القضية الفلسطينية تشكو من هذا الازدواج في الماضي ، فقد كنا نخاطب العالم بغير اللغة التي نتخاطب بها فيما بيننا . وكان اعداؤنا يجدون في هذا الازدواج على وجه التحديد مرتعا خصبا للتشكيك في « صدق » قضيتنا وعدالتها . وصحيح اننا كنا دوما نؤكد للعالم اننا لسنا من دعاة اللاسامية واننا نميز بين الصهيونية كحركة استعمارية وبين اليهودية كديانة عالمية ، لكنهم نادرون اولئك الذين كانوا يصدقوننا . والسبب في ذلك غير معقد كثيرا كما كنا نصور لانفسنا : فنحن حتى عدوان ١٩٦٧ لم نستطع اقناع العالم بأن قضية شعب فلسطين انما هي قضية تحرر وطني . والحقيقة انه لم تكن هناك سوى وسيلة وحيدة لاقناع العالم بذلك وهي ان يكون مسلكنا نحن بالذات من القضية الفلسطينية مسلكا تحرريا وطنيا . ومثل هذا المسلك ليس له في العالم المعاصر سوى ترجمة واحدة : الكفاح الشعبي المسلح في سبيل التحرير . وطالما كان العرب مرجئين لهذا الكفاح ، كان من الصعب ان يقتنع أحد من غير العرب بأن القضية هي فعلا قضية تحرر وطني . ومن هذه الزاوية المحددة نقول ان حركة المقاومة المسلحة الراهنة في الاراضي المحتلة هي اول ترجمة عملية منذ كارثة ١٩٤٨ لفكرة ان قضية فلسطين هي قضية تحرر وطني . وغني عن القول ان حركة المقاومة المسلحة ما تزال في بدايتها ، وانها لن تكتسب حقا مشروعية الكفاح التحرري الوطني في انظار العالم الا بمقدار ما تتحول الى ثورة شعبية شاملة .

ويوم تكتسب حركة المقاومة المسلحة في الاراضي المحتلة مشروعيتها الكاملة كحركة تحرير وطني ـ وهي مشروعية قوامها اساسا التضحية والدم الكثير المهراق لا الوثائق التاريخية ـ يومئذ تفقد الدعاية الاهمية الكبيرة التي كنا نعلقها عليها في الماضي ، وتنعكس المعايير : فبدلا من ان نتوجه نحن الى العالم يومذاك لـ « يتفهم » قضيتنا ولـ « يعطف » عليها ، يصبح من واجبه هو ان يتفهم حركتنا التحررية الوطنية بل ان يتضامن معها ايضا . واذا كنا بالامس وما زلنا الى اليوم مطالبين بتبرير انفسنا ومشروعية قضيتنا امام العالم ، فان العالم يصبح هو الملزم بتبرير نفسه ومشروعية مواقفه يوم تكتسب حركة المقاومة المسلحة ابعادها الكاملة كحركة تحرر وطني . فما دام هذا العصر هو عصر التحرر الوطني والانتقال الى الاشتراكية ، لذا فان موقف التقدميين واليساريين في العالم من كل قضية تحرر وطني هو المعيار الاول لتقدميتهم ويساريتهم . ولنا في الثورة الجزائرية برهان ساطع . فلكم اسقطت من اقنعة تقدمية ويسارية زائفة عن وجوه امكن لها ان تتلبس تلك الاقنعة طالما ان حركة التحرر الوطني الجزائري لم تكن قد ولدت بعد ! ولكم اضطر اصحاب تلك الاقنعة الى المداورة والمناورة حتى لا تظهر وجوههم على حقيقتها !

ولهذا على وجه التحديد تبذل اجهزة الاعلام الصهيونية اقصى ما في استطاعتها لتنكر على حركة المقاومة المسلحة في الاراضي المحتلة صفة حركة التحرر الوطني . وما اكثر ما حاول الصهاينة ان ينفوا عن انفسهم صفة المحتلين . ولقد نبه اكثر من زعيم فيهم الى الخطر الذي ستعرض اسرائيل نفسها له اذا ما تصرف جيشها على انه جيش احتلال او اذا نجحت حركة المقاومة العربية في الباسه لبوس جيش الاحتلال. ولكن ما غاب عن اذهان هذا النفر من الصهاينة هو ان المسألة على هذا الصعيد ايضا ليست مسألة دعاية او مسألة ارادة ذاتية وان الجيش الاسرائيلي مضطر موضوعيا الى ان يتصرف كجيش احتلال ما دامت المقاومة العربية في تصاعد . ولنا على ذلك مثال في تناقضات السلطات الاسرائيلية التي تحاول ان تصم الفدائيين العرب بانهم مجرد « مخربين » مستأجرين من قبل الدول العربية . فالسلطات الاسرائيلية في محاولتها قمع المقاومة العربية هي اول من يضطر الى دحض زعمها ذاك . وقد اشارت « اللوموند » الفرنسية الى جانب من هذه التناقضات عندما نقلت بعض التفاصيل عن محاكمة « المخربين » المتهمين بالقاء القنابل في تل أبيب . فقد حكمت عليهما المحكمة الاسرائيلية بالسجن المؤبد ، وكان ردهما على هذا الحكم ابتسامة ساخرة وانكارا لحق المحكمة في محاكمتهما اصلا . وقد حاول المحاميان اللذان عينتهما المحكمة ان « يقنعا » المحكمة بضرورة معاملتهما كأسرى حرب باعتبار انهما يعملان في سبيل تحرير بلادهما . ولكن المحكمة ردت هذا الطلب لان المتهمين لا يرتديان بزة رسمية ولا يحملان شارة عسكرية وليسا من القوات النظامية لاي دولة معادية ولا يعملان لحساب اي دولة معادية (١) . وبعد ذلك يريد الصهاينة من العالم ان يصدق زعمهم عن ان الفدائيين هم مخربون مستأجرون من قبل الدول العربية!

والواقع ان الابعاد التي اخذت حركة المقاومة العربية باكتسابها كحركة تحرير وطني تنعكس اول ما تنعكس في تطور موقف الصحافة العالمية من حركة الفدائيين . ففي البدء لم تتحدث هذه الصحافة ، متبنية المصطلحات الاسرائيلية ، الا عن « المخربين » و « الارهابيين ». ولكن شيئا فشيئا اخذت تحل محلها مصطلحات « الوطنيين » و « المقاومين » و « الفدائيين » . وما يزال قسم من هذه الصحافة حريصا على تسمية المقاومين باسم « الفدائيين » دونما ترجمة . وواضح ان القصد من ذلك تمويه الصفة التحررية الوطنية لحركة المقاومين العرب باعتبار ان كلمة « فدائيين » لا معنى لها في اللغات الاجنبية ولا تستخدم الا بعد وضعها بين قوسين (٢) .

واذا كان تأكد الصفة التحررية الوطنية للمقاومة العربية قد بدأ يحدث فرزا (اوليا) في اوساط اليسار العالمي بين من هم تقدميون فعلا ومن هم متقنعون بأقنعة يسارية ، فان هذا الفرز قد امتد ايضا ، وبالضرورة ، الى التقدميين والديموقراطيين من يهود العالم . فحركة المقاومة العربية بوصفها حركة تحرر وطني لا بد ان تتوجه في المقام الاول ، على صعيد الاعلام ، الى التقدميين والثوريين والديموقراطيين في العالم اجمع . ولا يستطيع احد ان ينكر ان بين هؤلاء عناصر يهودية . وهذه العناصر المتأثرة الى حد كبير او صغير بالدعاية الصهيونية كان لها دورها في الماضي في تأليب اليسار العالمي على الموقف العربي من القضية الفلسطينية . وانه لما لا ينكر ان اليسار العالمي لم يكن في جانبنا في الماضي هذا ان لم يكن في الصف المعادي لنا . وكان ما يفزع هذا اليسار منا شبح اللاسامية ، في حين كانت الدعاية الصهيونية قد ادخلت في خلده ان اسرائيل هي قاعدة للتقدم والديموقراطية في منطقة الشرق الاوسط الاقطاعية . وصحيح ان رياح الثورة العربية التي اخذت تهب في اوائل الخمسينيات من هذا القرن قد اظهرت بطلان الزعم الصهيوني عن تقدمية كيان اسرائيل وديموقراطيته وبرهنت على العكس ، أي برهنت على أن اسرائيل هي قاعدة للامبريالية وللرأسمال العالمي في منطقة الشرق الاوسط ، ولكن الرأي العام العالمي ، بما فيه شطره التقدمي والديموقراطي ، لم يتقبل البتة على وجه الاجمال فكرة زوال كيان اسرائيل وان الح بقدر متفاوت من الجدية على ضرورة تحول الدولة الاسرائيلية باتجاه ديموقراطي وتقدمي . وخير من مثل هذا الاتجاه سارتر الذي اعلن تأييده للثورة العربية وادان مجرمي الحرب من امثال دايان ، ولكنه (وما اكثر ما يلجأ اليسار العالمي الى استخدام « لكن » هذه) اكد بأعلى صوته الحق القومي لليهود في الحفاظ على كيان دولتهم . ومهما انحينا باللائمة على اليسار العالمي وعلى تناقضاته وتذبذب مواقفه ، فاننا لا نستطيع ـ اليوم بوجه خاص ـ ان نتجاهل ان الثورة العربية كانت تحمل في ذاتها بذور التناقض في موقفها من القضية الفلسطينية . ففي الوقت الذي كانت تؤكد فيه ان القضية الفلسطينية هي قضية قومية وكولونيالية ، لم تعمل اطلاقا على تجسيد هذه النظرة من خلال ممارسة عملية اي لم تشن نضالا مسلحا وحربا شعبية تؤكد بهما بما لا يدع مجالا للشك صحة طرحها للقضية الفلسطينية باعتبارها قضية تحرر وطني . وطالما كان النضال الشعبي المسلح في سبيل تحرير الارض الفلسطينية مرجأ الى اجل غير مسمى ، كان من الطبيعي ـ هذا في حال افتراضنا حسن النية ـ ان نجد مفكرين تقدميين او ديموقراطيين من امثال مكسيم رودنسون وسائر اعضاء « جماعة البحث والعمل من اجل تسوية القضية الفلسطينية » يؤكدون الاصول الاستعمارية لدولة اسرائيل (دراسة رودنسون « اسرائيل واقع استعماري ») ويدعون في الوقت نفسه الى حل سلمي وديموقراطي يقوم على اساس احترام الحقوق القومية لكل من الشعبين العربي واليهودي (كتاب رودنسون « اسرائيل والرفض العربي ») .

ومن حقنا وواجبنا ان نرفض مثل هذه التأويلات ، ولكن ليس من حقنا دوما ادانة القائلين بها ما دمنا نحن أنفسنا لسنا منطقيين بما فيه الكفاية في مواقفنا وما دمنا لم نحول شعار حرب التحرير الشعبية وحق الامم في تقرير مصيرها الى ممارسة عملية . ولنا ههنا ايضا في الثورة الجزائرية مثال طيب . فلقد كان في وسع الحزب الشيوعي الفرنسي ان يفسر حق الامم في تقرير مصيرها باتجاه الاندماج بين فرنسا والجزائر ما دام شعب الجزائر لم يحول بعد حقه في الانفصال الى ممارسة عملية من خلال حرب التحرير الوطني . ولكن مع اندلاع شرارة الثورة الجزائرية اصبح موقف الحزب الشيوعي الفرنسي مستحيلا ما دام ذلك الحزب حريصا على الوقوف في صف المناهضين للاستعمار وللشوفينية الامبريالية . ولقد تراجع الحزب الشيوعي الفرنسي عن مواقفه بالتوازي مع تطور الثورة الجزائرية . والمطلوب منا اليوم ان « نرغم » كل اوساط اليسار العالمي على مثل هذا التراجع من خلال تطوير الثورة الفلسطينية العربية . وصحيح ان هناك من سيظل يشهر في وجوهنا « لكن » الخبيثة تلك ، غير ان مصير هذا النفر لن يكون في هذه الحال بأفضل من مصير الكاوتسكيين الذين خانوا الاممية ووقفوا في صف المتآمرين الامبرياليين على ثورة اوكتوبر بحجة « لكن » تلك .

ونحن نؤمن عميق الايمان بان العناصر اليهودية التقدمية الصادقة في اوساط اليسار العالمي سيكون لها دور حاسم الاهمية في صيرورة التراجع تلك وفي انتقال تلك الاوساط من مواقف « التجرد » و « التعالي » و « العطف » ـ هذا ان لم نقل من مواقف العداء السافر او المبطن ـ الى مواقف التضامن الاممي مع الثورة الفلسطينية العربية . وبايمان عميق ايضا نقول ان الازمة الضميرية التي ستحدثها الثورة الفلسطينية العربية في اوساط اليسار العالمي ستتجلى اول ما تتجلى لدى العناصر اليهودية الصادقة في تقدميتها من ذلك اليسار . ذلك ان هذه العناصر تجد نفسها بالضرورة معنية بالامر اكثر من غيرها . وليس من قبيل الصدفة ان تكون غالبية اعضاء « جماعة البحث والعمل

---

(١) ـ اللوموند ـ ٢٦ كانون الاول ١٩٦٨

(٢) ـ ربما كان من واجب الصحافة العربية هي ايضا ان تعتمد مصطلح « المقاومين » او « الانصار » شرحا لكلمة « الفدائيين » وذلك منعا لكل التباس وتوكيدا لصفة التحرر الوطني لحركات المقاومة .

من أجل تسوية القضية الفلسطينية » من اليهود . ومهما تكن تحفظاتنا على مواقف هذه الجماعة ، فاننا سنشعر بلا شك بارتياح ـ ارتياح مبعثه تأكد البعد الاممي لنضال شعب فلسطين العربي في سبيل التحرر القومي ـ عندما نسمع أ. ليفين ايسي لي مولينو يقول :

« لا يمكن في الجوهر ان اظل يهوديا حقا ما لم اقف بجانب أبأس الناس واكثرهم تعرضا للاذلال والمهانة ، ما لم اجسد كل شدائد الانسانية او اشارك فيها واحسها . لقد كان اندريه فيليب محقا عندما كتب : « كان هذا وضع الشعب اليهودي ، وهو الآن وضع الشعب الفيتنامي » ، وانا اضيف « وهو بالاخص وضع شعب فلسطين » . وهكذا يتأكد ويتكامل كياني اليهودي بشكل يبدو مناقضا للظاهر ، بل ان كياني يزدهر ويتضح بتعاطفي وتضامني مع عرب فلسطين وبمعارضتي الكاملة والمطلقة لدولة اسرائيل والصهيونية التي تحمل في مبادئها المظالم والجرائم التي نعيشها كشهود عاجزين . وما كانت دولة اسرائيل تستطيع ان تقوم دون ارتكاب هذه الجرائم . وكان الاعتراف بحقها في الوجود بمثابة منحها حق اقتراف الجرائم والامعان والتمادي في ارتكابها . ولا تستطيع اسرائيل ان تحافظ على وجودها الا بسياسة حكامها الحاليين ، وبالاخص منهم موشي ديان ومناحم بيغين . ولو كانت اسرائيل دولة شرعية في نظري لوافقت تماما ، كما توافق اغلبية اليهود بل شبه اجماعهم ، على ضم القدس والضفة الغربية وغيرهما من المناطق المحتلة ، لان تبرير وجود اسرائيل في حيفا والناصرية ويافا وبير شيفا الخ ... يستدعي بالمنطق تبرير وجودها في القدس وحبرون وبيت لحم وغزة الخ ... ولا ادري لماذا يكون احتلال الناصرية اكثر شرعية من احتلال الحبرون » (١) .

اننا نعلم ان امثال مولينو ما يزالون اقلية ، واقلية ضعيفة جدا ، ولكننا واثقون ان تطور حركة التحرر الوطني في فلسطين سيوسع صفوف تلك الاقلية . ولسوف يكون لتلك الاقلية صوت مسموع حتى ولو ظلت اقلية . وآنيا فرانكوس هي مناضلة جديدة تنضم الى صفوف تلك الاقلية وتقول بوصفها يهودية الاصل : « كما كنت اشعر بانني جزائرية يوم كانت الاهراس تمشط ، فانني اشعر اليوم بانني فلسطينية » . (٢)

والحقيقة انه اذا كانت الاوساط اليسارية والديموقراطية في العالم اجمع مضطرة الى الاعتراف بحق العرب في مقاومة الاحتلال الذي تم بعد حرب ١٩٦٧ ، فان هذه الاوساط ما تزال تبدي تحفظات كثيرة او قليلة بصدد العرب في مقاومة الاحتلال الذي تم في عام ١٩٤٨ . وباستثناء الشعوب التي خاضت كفاحا وطنيا مسلحا مثل الصين او فيتنام ، فان اوساط اليسار العالمي ما تزال تميز بين احتلال ١٩٤٨ واحتلال ١٩٦٧ . ومن هذه الزاوية نقول ان صوت العناصر اليهودية الاصل الصادقة في تقدميتها واميميتها هو من بين اوائل الاصوات التي ارتفعت في العالم لتؤكد شرعية نضال الشعب العربي ضد احتلال ١٩٤٨ مثله مثل احتلال ١٩٦٧ . وهذه آنيا فرانكوس تصرح بدورها بعد مولينو : « اذا بررنا انشاء اسرائيل في حيفا ويافا وبئر السبع ، فلماذا لا نبرره ايضا في الخليل وغزة والقدس ، وغدا من الفرات الى النيل ؟ » . (٣)

بالطبع ليس من حقنا ان نستسلم الى الاوهام على هذا الصعيد . فمهما تكن ابعاد التضامن الاممي التي ستأخذها حركة التحرر الوطني في الاراضي الفلسطينية المحتلة ، فان عبء هذا التحرير يظل في المقام الاول عبئا قوميا . والتضامن الاممي لن يكون فعالا حقا الا بمقدار ما يكون نضال التحرر القومي فعالا . وهذا معناه ان التضامن الاممي سيتوكد ويتعمق ويتطور بالتوازي مع توكد وتعمق وتطور حركة التحرير الوطني الفلسطيني . اذن فمن واجبنا الاممي ، كما من واجبنا القومي، ان نهيىء الظروف المثلى لتطور الثورة الفلسطينية . ونحن لا نجهل ان هذه الثورة لم تستكمل بعد شموليتها لا على الصعيد القومي ولا على الصعيد الاممي . وادنى المطلوب منا من وجهة نظر التضامن الاممي الا نستسلم لردود الفعل العصبية الهوجاء (والشوفينية) عندما نلحظ بعض التقصير او الجهل او حتى سوء النية في مواقف اوساط اليسار العالمي من القضية الفلسطينية وعلى وجه التحديد من حركة المقاومة المسلحة اذ هل يمكننا ان ننسى في هذه الحال أن الثورة الفلسطينية لم تحظ بتأييد بعض الحكومات العربية الا في وقت متأخر ، بل هي نستطيع ان ننسى ان هذه الثورة ما تزال تتعرض الى التآمر والقمع من بعض الحكومات الاخرى ؟

جورج طرابيشي

(١) ـ « الطليعة » ـ سبتمبر ١٩٦٨ ـ ص ١٧٧ . وبالمناسبة ، من المؤسف ان يكون مترجم « الطليعة » جاهلا بالاسماء العربية للمدن المذكورة فيقول « الحبرون » بدلا من « الخليل » و « بير شيفا » بدلا من « بئر السبع » و « الناصرية » بدلا من « الناصرة » .

(٢) ـ « الفلسطينيون » ـ ص ١١ .

(٣) ـ المصدر نفسه ـ ص ٢١٧ .

صدر حديثا :

تشريح جثة الاستعمار

تاليف غي دوبوشير
ترجمة ادوار الخراط

هذا الكتاب الجديد محاولة لتعريف الاستعمار واثبات انه ظاهرة اوروبية محض ، وهو يتلمس الصلة بين التعمير والاستعمار ، ويعقد فصلا مطولا عن التفرقة بين الاستعمار والامبريالية ، ثم يشرح كيف بسطت المسيحية ظلها على اوروبا ، وصلة ذلك بالغزوات التي كانت تتخذ من الدين قناعا لاخفاء الجوانب الاقتصادية الاساسية لظاهرة الاستعمار . ويمثل على ذلك بروح الحروب الصليبية ، في حين يثبت بالبراهين والادلة ان التوسع الاسلامي ليس بظاهرة استعمارية لا من حيث الاسس والاصول ولا من حيث التركيب والبنية .

ويتتبع الكتاب تطور ظاهرة الاستعمار عبر عصر النهضة وبدء ظهور الرأسمالية ويقوم بتحليل عميق للصلات بين الرق وبدء عصر الرأسمالية وظهور الطبقات العاملة والتوسع الرأسمالي في آسيا وافريقيا ، وينتهي بتحليل سقوط ظاهرة الاستعمار .

منشورات دار الآداب